قصة تعلم .. رحلة من الماضي

عبد الله قبها

بعد الانتهاء من دراستي الجامعية، وتقدمي لوظيفة معلم في التربية، لم يكن لي ند غير الزمان. فوقفت كثيراً على عتباته؛ لأحقق حلم حياتي وأنتصر على ذاتي في وظيفة تزيح شبح الخوف من المستقبل المجهول.

في صباح يوم غائم في شهر شباط، ومن بين أصوات الرعد، وحبات البرد، سمعت صوتاً مختلفاً، يناديني ويهزني، لأجد نفسي أرد على الهاتف، وأسمع صوتا يقول لي: ءتوظفت في مدرسة سيلة الحارثية». وتذكرت وقتها أن لي نصيباً من الخريطة بحكم تخصصي «الاجتماعيات».

وقفت تارة لأعين على خريطة ذاكرتي مدرسة سيلة الحارثية الأساسية الأولى، فداعبني هواء غربي قادم من أشتال الزعتر، لأذهب إلى بلد لم يخطر ببالي يوماً أن تكون فيه البدايات والحكايات.

من الحارة إلى السيارة مسافة، ومن السيارة إلى المدرسة مسافة. فيا ترى كم المسافة بينهما؟ قد تكون دقيقة أو ساعة، أو يوماً، أو شهراً، أو ربما تساوي سنة. فالسيارة تقف أمامي، تقدمت ودخلت. فلا أثر للركاب. فطلبت من السائق، أن يسرع، وأن لا يوقفه مطب ولا عائق، شعرت بعدها بقلق وضيق لا أعرف مصدره، وفجأة نسيت كل ذلك. لم يكن ذلك النسيان بتناول حبة «أسبرين» أو شرب كأس من «اليانسون»، بل بالرجوع إلى الماضي البعيد القريب عبر مشاهدات من ذاكرتي تركت آثاراً سلبية على العملية التعليمية التي كانت تجري داخل غرف الصف من الحجارة، فلا مراعاة للمشاعر ولا للأحاسيس، لا صوت يعلو فيها فوق صوت المعلم، ولا طرق فيها إلا طريق السبورة؛ لأن كل المسالك ذات اتجاه واحد.

فالمشهد الأول: كان في الصف الأول، لما طلبت من الأستاذ أن يسمح لي بالخروج من الصف لشدة الألم الذي يعتصرني، ولكنه أبى بكبريائه. والمشهد الثاني: في الصف الرابع حين دخل الأستاذ، وطلب مني أن أذهب معه للصف السادس؛ لأحل مسألة قد كتبها على السبورة، رغم أنها لم تكن مطلوبة منا. وأثناء الحل أصابني بعض الإرباك، وبدأ الصراخ فوقعت على الأرض منهك القوى.

والمشهد الثالث: في الصف الأول الإعدادي، كنت قد كتبت موضوعاً عن المدرسة وأهميتها لأضعه في مجلة الحائط. استيقظت باكراً وشعرت بالفرح، ركضت بعجالة إلى المدرسة، وكنت أول من وصل من الطلاب، فانتظرت قليلاً حتى بدأ الطلاب والمعلمون بالتوافد. تهت وأنا أبحث عن معلم يساعدني؛ لأكون متميزاً، وأنا أضع على مجلة خلاصة حبي لمدرسة وددت لو طال عمري بها.

توقف المطر، وتوقفت السيارة، فتوقفت مشاهد إحدى وعشرين سنة مرت؛ كأنها بضع دقائق لأجد نفسي أدخل عبر بوابة الحاضر لأترك الزمان البعيد.

هذه المدرسة كبيرة ومرتبة ونظيفة ومزينة، فماذا عن معلميها ومديرها؟ دخلت غرفة المدير، فوقف وصافح ورحب وعرف عن نفسه وعرفته

عن نفسي، وما هي إلا لحظات ليدق جرس انتهاء الحصة الثالثة، وبداية الفسحة؛ ليبدأ المعلمون بالتوافد إلى غرفة المدير بعد سماعهم بقدوم المعلم الجديد، فدخل الأول والثاني والثالث والرابع، وفي لحظة لم أصدق نفسي. فالزمان الذي تركته من برهة قرب البوابة، يرجع ويلاحقني من جديد، لكن بمشاهد امتزجت بشعور الاحترام والتقدير والوفاء، مشاعر ولد يكن الاحترام لوالده. هل هو حب أو قدر إلهي ساقني لأجد نفسي زميلاً وصديقاً لثلاثة معلمين كانوا أساتذتي يوماً ما.

يا ترى كيف كان اللقاء؟ وكيف كان شعورهم؟ وكيف لي أن لا أنحني أمامهم احتراماً وإجلالاً، فهذا الأستاذ نادر ياسين، خير مثال: لقد كان أباً حنوناً، مسامحاً، قريباً من الجميع. فكان وما زال ينظر للجميع من منطلق الأبوة، ويتعامل معهم باحترام وتقدير وليس من نظرة تسلط.

شعوري تجاهه وأنا طالب هو الشعور نفسه وأنا معلم، بل ازداد احتراماً أكثر. الآن أدرك بعد ما انخرطت في معضلة التعليم، أن الأستاذ نادر ياسين قام بدوره على أكمل وجه؛ كمرشد ومسهّل لعملية التعليم، بحيث كانت معظم أسئلته موجهة ومحفزة وتثير التفكير الناقد.

أتذكر تماماً في أول اجتماع حضرته مع المعلمين في غرفة المدير كان بعد ثلاثة أيام من قدومي إلى المدرسة. فكان موضوع الاجتماع مناقشة مستوى التحصيل ووضع الخطط العلاجية. فالكل يبدي ملاحظاته. فتحدث الأول والثاني . . . . طبعا أنا آخر من تحدث. فأنا الجديد القادم، فمن أين لي الخبرة والقدرة على الملاحظة، لكن لا أعرف أنني تكلمت إلا بعد تدخل المدير.

في غرفة الصف وفي المقعد الأخير، سألت أحد الطلبة سؤالاً: في أي قارة تقع فلسطين؟ . . . لا أعرف ماذا أصاب الطالب وكأني وجهت إليه تهمة، وما انتهيت من سؤالي، إلا بأصوات الضحك والجنون تملأ زوايا الغرفة. وقفت في حيرة من أمري، وسألت نفسي ما المُضحك؟ وعلى من يضحكون؟ ولا أخفي عليكم أنني كنت مرتبكاً. وحاولت أن أكون طبيعياً، فسألت طالباً كان قريباً مني. ما سبب ضحكك؟ فأجابني. بصراحة يا أستاذ أنت أول مدرس يوجه أسئلة إلى هؤلاء الطلاب ويحاول إشراكهم؟ ثم تكلم طالب آخر، وقال جملة لن أنساها ما حييت. يا أستاذ، هؤلاء الطلبة لا نسمع أصواتهم إلا في وقت الفسحة.

لا أعرف كيف ينظر البعض إلى مثل هؤلاء الطلاب، وما المطلوب منا كمعلمين تجاههم؟ لكن المعروف داخل المدرسة أن المعلمين يضعون خططاً علاجية. أنا شخصياً، وقفت كثيراً على هذه الأسئلة.

مشهد صفي

طالب في الصف الرابع يوجد لديه ضعف في التحصيل وصعوبات في القراءة والكتابة، وأنا أعلمه مادة التربية الوطنية والمدنية، كنت أشركه في النشاطات كغيره من الطلاب، ولكن يوجد خوف دائماً يسيطر عليه. وفي يوم، كانت السماء صافية والشمس دافئة، وكنت أنا ومدير المدرسة نجلس على شرفة المدرسة والطلاب في حصتهم الرياضية في الساحة. فوقع نظري على الطالب المسكين نفسه. فقلت للمدير أترى ذلك الطالب الذي يقفز؟ المدير: من؟ ذاك؟ فقلت أنا: لا بل الذي يلبس الأحمر. فقال المدير: نعم. فقلت له: ليس المهم أن يحفظ هذا الطالب المعلومات، ولا أن يعدد ويذكر، بل المطلوب منا جعله قادراً على تحمل مسؤولياته تجاه ميوله واتجاهاته. كما يجب علينا أن نأخذ بيده، ونساعده في نموه الشخصي موازنة مع نموه الجسدي. ليكون فاعلاً في مجتمعه وليس عِلة عليه. فرد المدير: «هذا كلام صحيح». وما هي إلا أيام ليرجع هذا الطالب مكللاً ومكرماً بالميدالية الأولى في لعبة الجمباز على مستوى مديرية جنين، فسارعت المدرسة إلى تكريمه أمام الطلاب في طابور الصباح إيذاناً منها بإطلاق مشروع المواهب دون تردد.

وما هي إلا دقائق بعد التكريم؛ كأنها استراحة محارب، أو كأنها لحظات الصمت والهدوء التي تسبق العاصفة، فرياح السين والصاد، قد هبت لتعصف بزهور يانعة لا تقوى على تحملها، فهي ما زالت صغيرة مسكينة، وإذا بهذا الطالب محطم اليدين وغريق دمع العين، يا ترى هل عرف السبب؟ وإذا عرف السبب يبطل العجب؟ ماذا لو قدر أن يكون للولد أبوان مختلفان، فهذا يضرب والأخر يسامح. هكذا تكون الحياة؟ وهكذا يكون التعليم؟ فكن كريماً وابن أخ كريم.

أعرف أن من يرتكب خطيئة عليه بالاستغفار، ولا مبرر لمعلم لم يوقظه وضح النهار. هي الشهور الثلاثة الأولى التي قضيتها مع طلابي لم أكن قريباً منهم بالمسافة المطلوبة. كنت أقرب للمنهاج منهم، وكنت مشغولاً بحفظ المعلومات، وهم مشغولون مثلي. فربما كان هنالك تعليم مع أنني أشك في ذلك، ولكن بكل تأكيد لم يكن هنالك تعلم، فالمطلوب دائماً حفظ الكلمات التي زين بها الكتاب والتحضير كالمعتاد. والسبب؟ الخوف من معاتبة الأحباب.

هنا لم تكن نظرتي واضحة بالنسبة للعملية التعليمية، وكان الموقف تكتنفه الضبابية، وشيئاً فشيئاً بدا الضباب ينجلي وتلوح بالأفق بوادر موسم كان التحضير والاستعداد له منذ الحصة الأولى. فالخطوة الأولى تغيير نظرتي للطلاب باعتبارهم مبدعين وقادرين على التغيير والإنجاز في المدرسة وخارجها، وأنهم قادرون على التأمل والبحث والمحاورة والإنتاج، وأن نؤمن بهم باعتبارهم طلاباً على منابر المعرفة من جانب، ومن الجانب الآخر باعتبارهم أناساً لهم حاجياتهم؛ لأننا بحاجة إلى طلاب لديهم القدرة على التحليل والتركيب أكثر من الفهم والحفظ؛ لأن عالم العولمة بحاجة إلى البحث أكثر من تجميع المعلومات، وعلينا أن نساعدهم على امتلاك مهارة التفكير. لأن تفكيرهم الآني سيؤثر بطريقة أو أخرى على قراراتهم في المستقبل الذي هو لنا ولهم.

فبعد كل هذا، لا بد من تغيير واضح داخل غرفة الصف، فالطلاب بشوق لأن موسم الحصاد قد هلّ بعد انتظار. فالحضارات بداية البدايات. فكيف تكون بداية درس حضارة شمال شبه الجزيرة العربية للصف الخامس الابتدائي؟

تقسيم الطلاب إلى مجموعات، ومن عرض شفافية مرسوم عليها خارطة شبه الجزيرة العربية، لكن بدون ذكر ما يحدها من الجهات الأربع، وبعدها قمت برسم سيارة باللون الأخضر في الجهة الشمالية، وسيارة باللون الأصفر في الجهة الغربية، وسيارة باللون الأزرق في الجهة الجنوبية، وسيارة باللون الأحمر في الجهة الشرقية. ومن ثم طلبت من التلاميذ أن يشاهدوا الخريطة والسيارات، وبعد بضع دقائق أغلقت الشفافية وبدأت أسرد عليهم القصة التالية: أن هنالك شخصاً يسكن خارج شبه الجزيرة العربية، ذهب إلى أداء فريضة الحج في مكة المكرمة، وبعد مرور أسبوع على سفره، جاء هاتف من مكة إلى بيت ابنه في ساعة متأخرة من الليل. وجهت السؤال التالي إلى الطلاب: يا ترى ما سبب هذا الهاتف في ساعة متأخرة من الليل؟ وبعد أخذ الإجابات من الطلبة، تبين أن الاتصال كان من المشفى في مكة المكرمة ليخبر الابن أن والده تعرض لجلطة أدت إلى إصابته وحالته خطرة، وطلب منه أن يأتي حالاً إلى مكة بشرط أن يستقل إحدى السيارات الأربع. برأيك، أي سيارة سيركب. السيارة الخضراء أم الحمراء أم الصفراء أم الزرقاء، ولماذا؟ ها هو التعليم الذي يفتح آفاقاً للبحث والاستكشاف.

مدرسة سيلة الحارثية الأساسية الأولى

من فعاليات الدورة الخامسة لمدرسة الدراما الصيفية في جرش.